## المحور الثاني عشر: الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب القديم

يعتبر الوجود البيزنطي في بلاد المغرب القديم استمرارا للوجود الروماني في المنطقة، بعد الفترة الوندالية التي مثلت مرحلة استعمارية فاصلة بين الوجود الروماني و البيزنطي، حيث يطلق على الامبراطورية البيزنطية اسم الامبراطورية الرومانية الشرقية تمييزا لها عن نظيرتها الغربية.

**1- التعريف بالبيزنطيين:**

يمكننا أن نعتبر يوم 11 مايو 330م، الذى أصبحت فيه مدينة بيزنطة العاصمة المسيحية للإمبراطورية الرومانية، البداية المنطقية للدولة البيزنطية، رغم استمرار الوحدة السياسية للإمبراطورية الرومانية ظاهريا في عهد قسطنطينوس (Constantin) وبعض خلفائه، لكن القسطنطينية، لم تكن عاصمة شكلية، لا في المجال الديني ولا المادي، فقد استطاعت بفضل موقعها أن تكون مركز ارتكاز للهلينية، التي أعطت دائما للولايات الشرقية خصوصياتها وطابعها وحتى مؤسساتها، وهو ما يفسر لنا سرعة تطور أمبراطورية الشرق غداة وفاة ثيودوز (Theodose ) وتقسيم الامبراطورية الرومانية بين أركاديوس ( الشرق ) وهنوريوس (الغرب) سنة 395م، التاريخ الذي اعتبر بداية الوجود الرسمي للامبراطورية البيزنطية[449] .

**2- أسباب الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب:**

*- حاول البيزنطيون استرداد افريقيا من أيدي الوندال عدة مرات وذلك بمهاجمتهم بحريا. منها تلك الحملة الكبرى التي تحطمت على شواطئ قرطاجة عام 468م. فكانت هزيمة تاريخية، لقد تحطم أسطول امبراطورية الشرق فاختفت قوتها البحرية سنوات عديدة وهو ما أجبر الامبراطور "زينون Zeno " على إمضاء معاهدة سلم مع جنسريق عام 476م، ولكن رغم حالة السلم التي حافظ عليها الطرفان ظاهريا في الفترة اللاحقة مع خلفاء جنسريق فإن النية البيزنطية كانت دائما تتوق إلى الفرص السانحة للقيام بعمل عسكري يسترجع مجد روما الضائع.

*- قيام ثورتين متزامنتين ضد الوندال في كل من إقليم طرابلس وسردينيا،ويبدو من الواضح أن زعماء هاتين الثورتين قد كانا على اتصالات مباشرة وسرية مع البيزنطيين لدعمهم في هذه الحرب [450].

*- الصراع الديني القائم آنذاك بين الكاثوليكية والأريوسية، وما نجم عنه من تعرض كاثوليكي افريقيا لمتابعات واضطهادات عديدة طيلة فترة حكم الوندال(429-533م) ، كما كان في القسطنطينية عددا كبيرا من الأفارقة ضحايا الاضطهادات الوندالية، وعدد ضخم من الأساقفة الذين كانوا عرضة للتعذيب الوندالي، وحول كل هؤلاء التف الأرثوذكس يتوسلون من الامبراطور التدخل[451].

*- طموح جوستينيان Justinien الذي اعتلى عرش القسطنطينية وأخذ يحلم بإمبراطورية عالمية قوامها العالم الروماني الذي قامت على شتاته دول جرمانية قوية، وراح يبحث عن العلل التي تمكنه من تحقيق أحلامه تلك. لقد كانت أنظار جوستينيان متجهة إلى قرطاجة التي يحتفظ فيها ملوك الوندال برموز الامبراطورية الرومانية المسلوبة بحد السيف. وجاءت الفرصة المنتظرة، لقد حدثت خلافات بين الوندال ووقعت حرب داخلية بسبب الخلافة بين كل من "جيلميرGelimer " و"هيليدريك Hilindric "عام 31م. فاقتتل الوندال فيما بينهم وضعفت قواهم ولم يبق مع جيلمير المتمرد على هيلدريك سوى حوالي 5000 فارس مع أنه انتصر عليه وانتزع منه كرسي العرش.

*- نال الوندال نخر الحضارة والترف، فأصبحوا قليلي العناية بالجوانب العسكرية، وضعفت في نفوسهم الروح القتالية، وهي أفضل ميزة تفوقوا بها على أعدائهم من قبل[452].

**3- مراحل الاحتلال البيزنطي على بلاد المغرب وحدود سيطرته :**

كانت الحملة البيزنطية في الواقع حملة عسكرية، وعملا استعماريا يغلب عليه الطابع العسكري، طيلة فترة حكم الامبراطور جوستينيان الذي حاول فرض سيطرته والوصول بحدود الولاية إلى ما كانت عليه أثناء الوجود الروماني، ولعل ما يوضح ذلك الاستعدادات العسكرية الكبيرة للقوات البيزنطية المشاركة في الحملة وأنواع الفرق العسكرية وتشكيلات الجيش والأسطول البحري، إضافة لذكر أسماء قادة الجيش ووظائفهم الأصلية[453].

جهز جوستينيان جيشا كبيرا وودعه بحفل رسمي يوم 22جوان533م من ميناء القسطنطينية، وبعد حوالي ثلاثة شهور من الابحار حط الأسطول رحاله برأس كبوديا " Caput Vado " على الشاطئ الشرقي لتونس، وذلك أواسط شهر ستمبر 533م. ولم تعترض حامية الوندال بجزيرة مالطة طريق الأسطول الذي مر بقربها، فسهل على بليزير" Belizaire "قائد الحملة أن يعبر بسلام. وقطع بليزير على رأس جيشه الكبير المسافة ما بين مرفأ الانزال وقرطاجة دون أن يعترض سبيله مقاومة تذكر. ما عدا المعركة الحاسمة التي دارت بينه وبين المووندال كان النصر فيها حليفه فدخل قرطاجة مظفرا بسهولة لم يكن يتوقعها، كان ذلك في شهر ديسمبر 533م. على الرغم من أن ملك الوندال جيلمير كان لا يزال يقاوم. لكن هذه المقاومة لم تعمّر طويلا حيث انهزم في معركة حاسمة عرفت بموقعها تريكا ماروم" Tricamarum "بشهر أفريل 534م[454].

لكن لو كر المعركة جلمير على البيزنطيين ساعة اقتسام الغنائم، لتغير منحى المعركة، لكن تأثره بالصدمة الأولى، وفراره الى جبل ( Papua ) فوت عليه الفرصة ، وفي هذا الجبل ضايق عليه فاراس ( Pharas ) الخناق حتى استسلم في شهر مارس 534م ، بعد ثلاثة أشهر من الحصار.

بعد استسلام جلمير أرسل بيليساريوس بعض قواده لاسترجاع قيصرية (Caesaree ) وسبتة ( Septum) المتوسط، لكن البيزنطيين سيصطدمون من الآن فصاعدا بمقاومة أعنف وأشد تتمثل فى مواجهة الاهالي[455].

أما عن حدود الامبراطورية البيزنطية في بلاد المغرب القديم، فإن الاحتلال البيزنطي لم يكن إلا احتلالاً محدوداً وجزئياً حيث تمثلت حدود كالتالي:

- البيزنطيون، وكانوا يسيطرون على البلاد الواقعة ما بين خليج قابس وسطيف مرورا بالقلاع التي أقاموها شمالي الأوارس وبلزمة، مع احتمال ضعيف لاحتفاظهم ببعض المراكز الساحلية القليلة في مقاطعات طرابلس والقيصرية اعتمادا على قواتهم البحرية وتأمينا لأسطولهم في عرض المتوسط الغربي.

- ممالك المور التي سيطرت على بقية البلاد بصفة يصعب معها تبين معالم الحدود فيما بينها أو مع البيزنطيين[456].

3- **السياسة الادارية البيزنطية في بلاد المغرب:**

بعد نجاح الحملة البيزنطية على شمال افريقيا، أمر جوستينيان ضباطه بمد الحدود إلى ما كانت عليه قبل الوندال، وليعيد لإفريقيا أشكالها الادارية السابقة، ولتجسيد ذلك أصدر الإمبراطور جوستينيان مرسومين في13 أفريل 534م، المرسوم الأول أرسله إلى آرخيلايوس ليتكفل بتنظيم الادارة المدنية، والأخر إلى بيليساريوس ليتكفل بتنظيم الادارة العسكرية[457].

أ- **الادارة المدنية:**

يفهم من نص قانون جوستينيان الموالي، أن افريقيا قسمت إلى سبع مقاطعات، ثلاث منها يديرها قناصل( البروقنصلية، المزاق، طرابلس)، وأربع عهد بها لرؤساء"Praesides" (نوميديا، موريطانيا الأولى "السطايفية، موريطانيا الثانية "القيصرية، سردينيا")

تكفل الحكام السبعة المكلفون بالإدارة المدنية للمقاطعات الأفريقية، بكل المهام، التي تكفل بها أسلافهم الرومان، تحت اشراف والى البريتوار " Prefect du Prétoire "، فتكفلوا بالإدارة المالية والعدالة والشرطة، وكان لهم أعوان و مستشارون ، شأنهم في ذلك شأن والى البريتوار .

والى البريتوار: تعذر ربط افريقيا اداريا بإيطاليا في عهد جوستينيان كما كانت فى السابق، جعل هذا الاخير ينشئ في افريقيا ولاية خاصة مقرها في قرطاجة، عين عليها والى البريتوار عوض البروقنصل سابقا. حيث يمثل البرايطور بذلك السلطة المركزية و يخضع له كل حكام الولايات في بلاد المغرب الذين يمثلون السلطة الجهوية، وتمتع بصلاحيات واسعة تمثلت في المحاور الأساسية( التشريع، الادارة، المالية، القضاء)، وكانت مهامه في بعض الأحيان تتجاوز الصلاحيات الادارية إلى الادارة العسكرية[458].

ب- **الادارة العسكرية:** وتشكلت مما يلي:

- قائد قوات افريقيا: يمثل في السلم العسكري، نفس المكانة التي يمثلها والي البرتوار في الادارة المدنية.

- الجيش البيزنطي بإفريقيا: ويتشكل من( جنود الحرس، الجيش المتحرك، الحلفاء، أفواج من المجندين الأهالي) [459].

**4- موقف المورمن السياسة البيزنطية:**

إذا كان استقبال مجتمع الرومان والأساقفة الكاثوليك للبيزنطيين بالترحاب، فان قبائل (البربر ) التي كانت تشكل القاعدة السكانية العريضة في بلاد المغرب لم تظهر نفس المشاعر. حيث وقف بعضها إلى جانب الوندال والبعض الآخر أظهر حيادا مما دفع بالبيزنطيين إلى اجبار القبائل التي ظفروا بها على تقديم رهائن ضمانا لخضوعها. ويؤكد برو كوب أن المور قاوموا القوات البيزنطية في جميع الجهات بدءا من عام 534م (تعيين القائد صولومون حاكما جديدا للمنطقة وسياسته التوسعية )حيث صدّ مور طرابلس جيش البيزنطيين، كما فعل أمراء المور في جنوبي نوميديا و بيزاكينا، فضلا عن القبائل التي تحالفت مع جيلمير، حيث قاتلت إلى جانبه إلى النهاية، وكانت مهيأة بعد ذلك لحمل السلاح في كل وقت[460].

ومن المجموعات التي حاربت البيزنطيين بضراوة قبائل لواته التي كانت تستوطن الحدود الغربية لمقاطعة طرابلس. وكذلك قبائل الفراكسFraxes ، وهي مجموعة متحالفة كانت تطوق بيزاكينا من الجنوب، وكانت تحارب إلى جانب الملك انتلاس Antalas ابن غنفان Guenfan وكذا قبائل ازداسة Esdilasa ومداسة Medsiniseو كوتزينا Cotsina التي تردد إسمها مشخصا في قائدها كثيرا أثناء الحرب البيزنطية.

وفي نفس الوقت كان بقايا الوندال يقاومون تحت قيادة شخص يدعى ستراتزاس"Stotzas"، فكان على صولومون أن يواجه جهتين يربط بينهما هاجس واحد هو الخطر البيزنطي[461].

حيث استغل صولومون انجلاء الوندال وتراجع المور وأخذ ينفذ أوامر الامبراطور بشأن الترتيب الاداري، فنصب حكاما للمقاطعات وقادة عسكريين على رأس أربعة أقاليم عسكرية هي : طرابلس وبيزاكينا ونوميديا وموريطانيا، على أن يتحذ أولئك المسؤولون مقراتهم بعواصم المقاطعات وهي على التوالي لبدة وقفصة أو تليت Thelete وكيرتا Cirta وقيصرية . وكان على الحكام أن يباشروا العمل من اجل إعادة الاعتبار للتحصينات وخاصة منها الواقعة في مواجهة المور الثائرين، حيث كانت أوامر الامبراطور جوستينيان مشددة